وصف أهل نابلس

بقلم

النابغة الأستاذ الفذ

رفيق ((بك)) التميمي

خريج جامعات الأستانة وباريس

ومفتش معارف نابلس الجديد !



الطبعة الثانية سنة ١٣٥٣ 1934

ملخصة عن الطبعة الاولى سنة ١٣٣٥

تمهيد

في سنة ١٩١٤ أي قبيل الحرب العامة بقليل أرادت الحكومة العثمانية تعريف سكان الولايات العثمانية ببعضها فعهدت الى جماعات من الشبان النوابغ من خريجي الجامعات بالتجول في أنحاء المملكة على نفقة الحكومة لكتابة وصف البلدان والأهالي وعاداتهم

وقد عهد الى السيد رفيق التميمي بكتابة القسم الخاص بجنوب ولاية بيروت وبالاخص نابلس وضواحيها وفي خلال أيام الحرب ظهر الكتاب باللغة التركية باسم « بيروت ولايتي » وقد ظهرت معه ترجمة حرفية باللغة العربية فجاءت في مجلد ضخم بلغ ٤٣٦ صفحة وقد سمى بنفس الاسم « ولاية بيروت » وهو مطبوع بمطبعة الاقبال وقد صدره رفيق افندي بترجمته (الكريمة) منتحلا فيها لقب بك ... معترفا أنه ولد سنة ١٩٠٣ !! يعني أنه الآن ابن نصف قرن ! ...

وقد ورد في الكتاب عن مدينة نابلس وأهلها أشياء لا يمكن لانسان أن يتصورها ولا أن يصدق صدورها من رجل سليم العقل حتى ولو كان (ابن حلال) ...

وقد اضطرت الحكومة العثمانية أمام ضجيج أهالي نابلس من الكتاب وسخطاً على رفيق بك أو افندي... الى جمع النسخ الموجودة بأسواق نابلس وحفظها ولكن ألوف النسخ الأخرى بقيت في الايدي في جميع البلاد العربية والتركية

ولما سأل الناس السيد رفيق ما هذه العملة ؟ قال (ان أهل نابلس أبفهموش ! هذه كتابة اجتماعية فلسفية ...) ثم هرب من نابلس ولم يجسر على السكنى فيها من ذلك العهد أي منذ عشرين سنة الى الآن

أما اليوم واهل نابلس « صاروا بيفهموا . . . » وحيث ان حضرته سيتولى في هذه البرهة منصب تفتيش المعارف فقد رأينا أن نلخص عن كتاب ولاية بيروت بعض ما كتبه نابغة الدهر رفيق التميمي بنصه ولغته وأسلوبه البديع .. ليعرف الجيل الجديد « فضله ويقدرو قيمة فلسفته وعلمه الغزير الفياض » . . . بل ليفهم الطلاب نفسية رئيس معلميهم والعياذ بالله :

« نابلس مهد الكذب »

« أهل نابلس يبذرون الشقاق ومساويء الاخلاق »

ففي الصفحة ٩٣ من كتاب ولاية بيروت وصف « حضرته » احوال قرية سلفيت قال :

(ليس أهالى سلفيت بهيئتهم العمومية حديدى المزاج . فهم ميالين لطباع المسالمة والتسليم . ينسون الاساءة بسرعة . ولا يحقدون كثيرا . محبون للضيف مثل سائر القرويين يخدمون ضيوفهم بأيديهم ولا يجلسون أمامهم امرأة ويمكن ان يقال ان عموم أهالى سلفيت متمسكون بدينهم ويعملون ليكونوا متدينين غير ان تمسكهم بالدين ظاهرى لانهم لايعرفون الدين بحقيقته فهم لايعلمون كثيراً من لوازم الدين لأنهم لايدركون لزومها فلا يوجد اليوم مثلا في قصبة سلفيت أكثر من خمسة عشر أو عشرين شخصا يصلون . ويقال ان هؤلاء الذين يذهبون الى الجامع آخذون بالتناقص يوم بعد يوم . كما ان الثبات على الأقوال بين القسم الأعظم من أهالى سلفيت غير معتنى به . فهؤلاء لايثبتون على أقوالهم ويقسمون كاذبا حتى يمكن أن يقال ان خصلة الكذب أصبحت مرضا موروثا بين هؤلاء ولقد قال لنا أحد الوجهاء في سلفيت : (اننا كذابون . نحلف كذبا فلا تصدقونا ولو أقسمنا بالله والنبي حتي ولو حلفنا بالطلاق) ومع هذا فانه رغما عن ان لواء نابلس مهد الكذب فان مواقعه متفاوتة الدرجات فبنى صعب بالدرجة الاولى ثم يأتى بعدها نابلس فناحية جماعين فقصبة سلفيت اما جنين فانها ممتازة عن سواها ! ومع هذا فان السلفيتين يعتقدون بان عدم الثبات على القول وعدم المبالاة بالكذب منتقلة اليهم من نابلس . ويقول فريق منهم :

ان أهالي سلفيت لم يكونوا كذلك قبل عشرين أو ثلاثين سنة . ولكن لما تحول مركز القضاء الى ناحية وارتبطت القصبة مباشرة من الوجهة الادارية بنابلس تبدلت أحوالنا تماماً . فقد بذر النابلسيون بيننا بذار الشقاق وفساد الاخلاق تأميناً لمنافعهم الشخصية فاصبح السلفيتيون لا يحبون بعضهم بعد أن كانوا يعيشون كالاخوة . ثم بدأ السلفيتيون باضرار غيرهم لمنافعهم الشخصية. علمنا ذلك النابلسيون فأخذنا نتضارب ونتجارح ويقتل بعضنا بعضا بالرصاص والبارود واخذنا نكمن لبعضنا وراء الاحجار والدور فنقتل انفسنا . ولقد وجدت الرقابة أولا بين أبناء العم والخال وسرت الى ما بين الاخوة ثم انتقلت الى النفار

وانتهت باهراق الدماء . أما النابلسيون فقد استفادوا من هذه المنازعات . فسلبوا ما عندنا بداعي أنهم ينقذوننا مما نقع فيه من المهالك حتى أصبحنا أذلاء فقراء اسرى بين أيدي النابلسيين »

وفي الحقيقة أن الفقر في سلفيت أمر يستلفت النظر ولكن وقوعات الجرح والقتل وسرقة الحيوانات والذخيرة بسبب الفقر أصبحت مفقودة تقريبا منذ اعلان النفير العام . ويمكن أن يقال أن سلفيت تقضي دوراً من السكون لم يكن منتظراً وقوعه حتى الآن .

أن مسائل السرقة كثيرة جداً في سلفيت لدرجة أنه يقال في وجه السارق أن فلانا سرق الشيء الفلاني . فيجب حينئذ على السارق أن يذهب الى مقام الشيخ جلال الدين في سلفيت ويقسم هناك ويروي أن كافة أهالي ناحية جماعين وفريقا من القدسيين يحضرون الى هذا المقام ويبرؤون أنفسهم مما نسب اليهم . ويعتقد السلفيتيون أن الذي يحلف كذبا في هذا المقام يصاب حالا فتخرب داره أو يموت أحد أقربائه .

يتألم السلفيتيون من أهالي نابلس ويشكون منهم . وبعد أن كانوا يهتمون للنابلسيين ويراعون شأنهم أصبحوا بعد أن افتقروا لايبالون بهم . وقد أمسكوا عنهم . ولا يخفون تأثرهم منهم . ورغما عن معرفتهم هذه الحقيقة فلا يزالون منقادين اليها يرجعون الى النابلسيين في أمورهم ويستقرضون منهم بالفائض واذا حدث فيما بينهم اختلاف على أرض يرجعون في حلها الى النابلسيين »

الى هنا انتهى كلام رفيق عن قرية سلفيت واسمع الآن ماقاله في صفحة ١٠٣ عن نابلس أيضا في خلال وصفه لقرية ديراستيا :

نابلس موطن ابليس

اغسل يدك ان صافحك نابلسي

لو أزيلت نابلس من الدنيا لامتلأت بالأنوار !

(وبعد مدة قليلة وصلنا غير منتبهين الى قصبة (دير استيه) فوجدنا آثار القواعد العمومية موجودة تماما هنا غير أن أهالي هذه القصبة اكثر شكاية من نابلس حتى أن أحدهم قال لنا :

ان الله تعالى رمي بآدم الى سيلان . وبالجنة الى اصفهان . وبابليس الى

بيسان . لأن أراضي بيسان هي نابلس . ولهذا فان نابلس مهد الفساد فنسأل الحق تعالى أن ينقذنا من شرها . وقال لنا آخر :

دخل الشقاق بين أخين فأهلكت الأسرتان بعضهما . ولقد حصل ذلك باغراء النابلسيين ومفاسدهم فنرجو الله أن يخلصنا من هؤلاء المنافقين .

وكان آخر يزيد على ذلك فيقول :

ـ فاغسل يدك اذا صافحك نابلسي !

واستخرج آخر لم يكن مشاركا لنا بالحديث النتيجة الآتية :

ـ اذا ازالوا نابلس من بلادنا حينئذ تمتلأ بالانوار) !!!

ولما انتهي السيد رفيق من موضوع دير استيا تناول جهة جماعين فأخذ يشرح أسباب شقاء أهلها وذلك في صفحة ١٠٤ قال :

أهل نابلس يقرضون بفايظ ٦٠ و ٧٠ بالمئة

من ظلم أعيان نابلس واعتسافهم أن الاغنياء يقرضون الفلاح اموالا بفائض خمسة عشر في المائة لستة أشهر . وأما الجاهل المحتاج للدرهم فانه لايفتكر بثقل الشروط أو ضعفها بل غاية مايتصوره الوصول الى الدراهم باي طريقة كانت وبعد أن يقرض الغني شيئا من المال للفلاح يصبح سيداً له وحاكما عليه لان القروي الفقير الذي لايملك سوى النذر القليل من الدخل السنوي — لايتمكن حين حلول الوعدة من أداء الدين فيتهدده الغني الدائن بماله من النفوذ لدى رجال الحكومة فيضطر القروى أخيرا لتجديد معاملة الدين بشروط أثقل من الأولى . ومن المحقق أن اكثر أغنياء نابلس تقريبا يقرضون أموالهم سنويا بفائض يتراوح ما بين (٦٠ و ٧٠ فى المئة) ولقد أعادت مسئلة الاقراض والاستقراض طريقة الاستعباد في بلادنا الدستورية لأن القروي الذي يعجز عن تأدية الديون المتراكمة عليه يصير عبدا لذلك الغني المقرض — والغالب أن يكون الغني ظالما وعديم الوجدان — وحبا بدوام ارضائه واستنداء رحمتـه يبقي القروى لنفسه نذرا قليلا من محاصيله الصيفية والشتوية ويقدم الباقي للمقرض الغنى على أمل أن يحسب من أصل الدين الذي له ورغما عن تكرر هذه المعاملة في كل سنة فان القروي المسكين لايتخلص من الدين . و يكثر فى نابلس عدد المقرضين الذين تتراوح ثروتهم من العشرة آلاف الى الاربعين الف ليرة بسبب معاملة الاقراض والاستقراض

اهل نابلس يحتقرون المرأة ويهينونها

ولما انتهى رفيق افندي من الكلام على بعض القرى تكلم عن بلدته نابلس بالذات فقال ما يأتي نقلا عن الصفحتين ١٢٥ و ١٢٦

« حياة العائلة اعمل جهدي هنا لأشرح حالة مرض اجتماعي أصاب حياتنا الاجتماعية عموما في الشرق وقد تجلى لنا تماما اثناء التدقيقات التى أجريناها أخيراً في نابلس . ولا ريب أن بياناتي هنا ذات ماهية علمية عامة : ان حياة العائلة في نابلس تتجلى لنا بمظاهر مؤلمة جداً فيمكننا أن نقول أنه ليس للمرأة هنا حكم أو تأثير مطلقا اسوة بباقى الانحاء من بلادنا فيحبون حرمان كل شيء لهذا المخلوق الذي لا يريدون أن يخرج من بطون الامهات إلى هذا العالم . ومن الواجب أن يكون تعليم الابنة ناقصا . بل أي حاجة تقضي بتعليم المرأة . ولو فرضنا انهم أحسنوا اليها وأدخلوها احدى المكاتب فانهم يقيمون سداً في وجه تعليمها بعد أن تتم ختم القرآن الكريم . فيخرجونها من المكتب قبل أن تتعلم جمع الأعداد البسيطة بصورة تامة . وتبقى الابنة في البيت الى الخامسة أو السادسة من عمرها وليس لها من الاهمية شيء وينظر اليها بكل اشمئزاز وعدم اعتبار لانها ابنة ! وخصوصا اذا كانت سببا لدخول ضرة على أمها في البيت فان حياة البنت تصبح حينئذ نقمة زائدة عليها . فتضرب وتصفع ولا يمكنها الفرار من الدار الا بصعوبة زائدة وترى البنات اللواتي يفررن من بيوتهن على هذا الشكل يخرجن الى الازقة فيلعبن مع رفيقاتهن بالطين والتراب وحينما يقبل المساء يجتمعن صفوفا ويأخذن بالرقص في الاسواق ، ولا تتخلص البنت في الدار من ضرب أصغر صبي ومن اهانته لها . وهي مضطرة لأن تتحمل ذلك بالرضا والقبول . واذا خرجت من الدار تبقى أيضا محكومة بالصبر على اهانة صبيان المحلة وضربهم وصفعهم لها . وهي تتحمل كافة الالعاب . فاذا ما دخلت في السنة السادسة من عمرها أصبح خروجها لظاهر الدار أمراً ممنوعا مطلقا . ويحكم عليها بأن تتنشق الهواء الرطب المتعفن المظلم وهي في دارها . واذا تيسر لها الخروج من الدار في السنة مرة صحبة والدتها فمن القواعد المتبعة أن تطرق البنت رأسها في الارض ولا تلتفت لجهة من الجهات . وبعد خمس سنين أو ستة ترسل هذه البنت المسكينة التى لا تعرف من العالم سوى تعداد أحجار الازقة إلى دار غريبة عنها تماما تجهل فيها كل شيء فتصبح هناك آلة للولادة وخادمة للرجل وجارية للحماة ولابنة عمها . وتجبر تلك

المرأة الصغيرة التي القيت بين أيدي الاغراب على أن لاترفع صوتها بالشكوى لا من حالتها ولا من دارها الجديدة ولا من زوجها . ولا سبيل لها الا الرضاء والتسليم بحياتها كما هي . ومع هذا فانه لو فرضنا انها تحملت كافة هـذه المشاق . ولم تعرف لنفسها قصوراً أو هفوة فانها لاتلبث أن ترى في يوم من الايام ضرة تشاركها في حياتها فينفذ حينئذ صبرها وتبدأ بالشكوى والتذمر من حالتها التعيسة فيختلط الحابل بالنابل ما بين حماة وابنة عم وزوجة أولى وزوجة ثانية ورجل وأولاد الزوجات المختلفات. فتصبح تلك الدار حينئذ دارعذاب وتبدأ حياة المرأة بالذبول ويذهب عمرها ضحية . ومن العادة في نابلس ان لا يهتم بمرض المرأة حتى أنه ليس من العادة عندهم أن يستحضر طبيب أو يشتري علاج للمرأة أن مرضت فان اشتد المرض استحضروا الطبيب مرة أو مرتين ولـكن الزمن الذى يمكن للطبيب فيه انقاذ حياة المرأة يكون قد مضى فتذهب تلك المرأة المسكينة تاركة وراءها أطفالا بحالة يرثي لها. على أن تلك المرأة تكون قد تماسكت بالحلقوم مع أولادها وهم أطفال . تموت المرأة فلا يهتم الرجل لوفاتها. وفي اليوم الثانى يذهب فيتزوج ثانية وليس من العادة أن يذكر اسم المرأة المتوفاة على قبرها. ومن الصعب أن يوجد اسم أمرأة مسلمة مكتوب على قبور نابلس . ويعتقد النابلسيون أنه من المعيبات ذكر اسم المرأة المتوفاة)

نابلس بؤرة امراض

وأهلها بلهاء مجانين ...

وبعد أن أطال فى الـكلام عن نابلس في مناسبات شتى لا قيمة لهـا قام بوصف حالتهم العقلية والصحية على الوجه الآتي وهاهو ننقله عن الصفحة ١٣٨ قال :

وفى بعض الأسر النابلسية علل ارثية خاصة بها ولقد كان اصرار هذه الأسر على تزويج أبنائها ببعضهم منذ القديم سببا لبقاء هذه الامراض الارثية فيما بينهم وفي نابلس أسر تصاب عموما بامراض القلب أو بالامراض البنيوية والجلدية أو بعلة (البله) ويمكننا أن نشير الى وجود مرض (الافرنجى) احد الأمراض الزهرية بين العلل والامراض الارثية . أما الافرنجي الجديد في نابلس فهو أقل جدا من الافرنجي الارثي . ويخمنون مقداره بأربعة أو خمسة في الألف

ومن الامراض الزهروية الموجودة فى نابلس علة (حرقة البول) فانها منتشرة بكثرة . انه لايوجد في نابلس محلات عمومية ولكن زيادة وجود المناسبات غير المشروعة بين الخلق يؤدي الى زيادة (حرقة البول) « أي السيلان »

ويوجد في نابلس من الامراض الجلدية (الاكزما) ومن الامراض العقلية (البله) وخصوصاً (النوروستاني) و (الهستريا) ومن الامراض الروحية المعروفة في نابلس (السير في المنام) (وتعدد الشخصيات) وان الجهل والظلمة الفكرية تؤدي لزيادة هذه الامراض . وبسبب ما في النابلسيين من الاستعداد للتصديق والتسليم باقل شيء فانهم معرضون للتنويم المغناطيسى (مانيـاتز) باسهل الطرق

وحاصل القول انه يمكننا جمع كافة اسباب هذه العلل تحت قاعدة واحدة وهي : ان النابلسيين لايعرفون معني الصحة !

«بهدلة عكا ايضا» !

هذا مجمل مختصر لما وصف به رفيق التيمي بلدته وأهل وطنه

واليك بعض ماقاله عن مدينة عكا التي لاتدري لماذا يبهدلها هي الاخري وذلك نقلا عن الصفحة ٢٧٨ قال :

وبقدر الانحطاط المؤلم في دور عكا فان معيشة الساكنين فيها أشد انحطاطا واكثر ايلاما . . فاذا استثنينا من بين الاهلين عموما ثمانية أو عشرة من الاسلام وخمسة أو ستة من المسيحيين الذين يشتغلون بالتجارة والزراعة وهم أصحاب ثروة ويملكون أملاكا وأراض بقيمة عشرين وثلاثين ألف ليرة فان الباقين من الاهالى لايشتغلون بغير المهن الفقيرة مثل الصيادة والملاحة وبيع الخضر . يكتسى الاهلون غنبازا أو سروالا ومن فوقه حزام (زنار) ورداء (جاكت) وطربوش أو عمامة (اغبانية) وهم جميعا فقراء . . وان عكا تحسب من جملة البلاد المنحطة جدا بمعارفها . وبسبب حرمان عكا من مكتب منتظم بقى محيطها على فطرته . يمضي الاهلون أوقاتهم في القهوات . ففي خارج السور ست قهوات تراها ممتلاة ليلا ونهاراً . ليس في العكاويين ذكاء حاد . أو حركة زائدة واجتهاد أوشيء يشبه ذلك مثل التشبث والميل الى العمل . والحاصل أنهم خالون من كل شيء وفي الوقت ذاته فانهم يقرون بانهم لا يحبون بعضهم بعضاً وليس فيهم ميل أو رغبة بمعاونة بعضهم لبعض ، ورغما عن أن قيافة العكاويين الخارجية نظيفة فان داخلية دورهم التي لا ترى النور قذرة . وعبثا البحث عن الانتظام فيها) !!